« جيل القدر » ومطاع صفدي

بقلم عبد المحسن طه بدر

ان اهمية العمل الفني الذي يقدمه لنا الاستاذ مطاع صفدي في روايته « جيل القدر » لا تنبع من قيمته الفنية بقدر ما تنبع من كشفه عما يفرضه الواقع العربي الراهن على ادبائنا وفنانينا من ان يعيشوا حاضرهم ويواجهوه بعمق كاف ، يسمح لهم بالكشف عن امكانيات هذا الواقع وتناقضاته واشواقه وآماله في المستقبل .

واذا نظرنا الى رواية « جيل القدر » من هذه الزاوية لامكننا ان نكتشف فيها اشارة الى نقطة تحول في اتجاه الرواية العربية المعاصرة.

وذلك لان المتأمل في اغلب انتاجنا الروائي يلاحظ ان هذا الانتاج كان يتجه في اغلبه الى الماضي ، والاتجاه الى الماضي ليس عيبا في ذاته ، الا لكان معنى ذلك ان نحكم على كثير من الاعمال الروائية الرائعة بالفشل ، لا لشيء الا لانها اتخذت من الماضي موضوعا لها . ولكن الاتجاه الى الماضي قد يصبح نقصا خطيرا اذا كان معناه الهروب من الواقع اما الى عوالم خيالية رومانسية تبشر بالجنة التي يوعد بها المتقون دون رصيد من الواقع او المنطق ، او بالاقتصار على رصد المظاهر السطحية لهذا الماضي التي اصبحت معلومات بديهية لا مجال فيها لخلاف ولا حاجة للاديب في عرضها الى تعمق.

والرواية العربية حين اتجهت الى الماضي كانت تعمد اما الى تصوير البطولات والامجاد التاريخية للشعب العربي بصورة مغرقة في الرومانسية ، واما الى العودة الى تقرير حقائق اصبحت مقررة فعلا وبديهية . فبعد ان يكتشف الجميع ان الاستعمار والاقطاع والملكية كانت هي العوامل الرئيسية في التأخر والانحلال اللذين اصيب بهما المجتمع العربي ، وبعد ان ينتهي الناس من حسب اللعنات على كل ذلك ، يتقدم الروائي العربي ليضيف لعنة جديدة الى هذه الاجساد التي تعفنت ، دون ان يدرك الحكمة البسيطة التي يرددها المثل العامي والتي تقول « ان الضرب في الميت حرام » وهو حين يتعرض لهذه المظاهر لا يدرك انها اشبه باخطبوط له الف ذراع يمدها الى شتى نواحي وجودنا النفسي والاجتماعي بل يقتصر على اشد مظاهرها سطحية بحيث ان حديثه عن هذا الماضي يصبح مجرد صياغة جديدة للاخبار التي تتناقلها الصحافة !!

وحين حاول بعض الكتاب ان يتحدثوا عن الواقع ، وقفوا عند محاولة استهواء القاريء والتأثير عليه بالتركيز على الناحية الجنسية وعرضها في صور حادة صارخة او وقفوا موقف الواعظ والمعلم ، وكلا المحاولتين هي صورة جديدة من صور الهروب من الواقع والتخلص من مواجهته بعمق كاف يؤكد مساهمة الفن في تطوير الواقع العربي الراهن.

ولعل هذا هو السبب في كثرة الشكوى من ان الفنون العربية بما فيها الرواية تكتفي بمتابعة الاحداث دون ان تساهم في تطويرها ، وان الجيل العربي المعاصر لم يجد الكاتب الذي يعبر عن آماله وميوله بعمق كاف بعد . وتنبع اهمية الرواية التي يقدمها لنا مطاع صفدي من انه يحاول ان يعبر عن هذا الجيل وان يتعرض لهذا الواقع الذي لا يزال في مرحلة التبلور ، وانه بذلك قد حاول الدخول من الباب الضيق ، وتعرض لكل ما يمكن ان يتعرض له الرواد الاوائل من اخطاء واتسمت روايته بطابع المغامرة فيما يتصل بالمقاييس الفنية للرواية كما عرفها الناس .

والظاهرة الثانية التي تنبه اليها رواية مطاع صفدي والتي تبدو لنا اكثر خطورة واهمية ، هي ان الفنان العربي اصبح اليوم مضطرا الى الخروج من جحيم فرديته ومواجهة الواقع والا حكم على نفسه بالنفي والعزلة ، وذلك لان الحركة المتجددة الحية التي تسري في كل خلية من خلايا مجتمعنا العربي تفرض على كل فرد ان يساهم بكل قواه وامكانياته في هذه الحركة الحية المندفعة .

فلم يعد الواقع العربي في حالته الراهنة يسمح للفنان او يمنحه تبريرا لان يظل متقوقعا على ذاته يغني عزلته ووحدته وقلقه وضياعه ويأسه ، او يحلم بعوالم خيالية يسقط عليها رغباته وامانيه المكبوتة ، لان المجتمع العربي لم يعد الان في حاجة الى الهروب من واقعه ، وانما هو يتجه الى ان يعيش هذا الواقع بكل عمق ، كما انه لم يعد يعطي الفرد التبرير الكامل لانعزاله ووحدته لان يتجه بشدة الى التضامن والعمل في سبيل الاهداف المشتركة . كما لم يعد الواقع يسمح للفنان بالاستعلاء عليه والوقوف منه موقف الواعظ او المرشد او موقف اللائم الناعب ، وانما هو في حاجة الى من يعيش معه حياته ويشاركه في الكشف عن واقعه وامكانياته وتناقضاته ، ويسير معه في الطريق الى المستقبل دون ان يقف منه متجهما عابسا وقد اتخذ موقف الاله الغضوب!

ولعل المغامرة الكبيرة التي تنتظر الادباء العرب هي الخروج من قوقعتهم الذاتية واستعلائهم الكاذب على واقعهم والنظر الى هذا الواقع بصورة اكثر بساطة وارحب افقا .

ولاحساس الاديب العربي المفرط بالذاتية واستعلائه على واقعه حكاية طويلة ربما كنا في حاجة الى الحديث عنها بالتفصيل لانها في الواقع البؤرة التي تتجمع حولها المشاكل التي يتعرض لها الناقد حينما يتجه الى رواية « جيل القدر » بالنقد والتحليل .

وتبدأ حكاية الذاتية والاستعلاء منذ مطلع القرن العشرين حين بدأت تظهر في افق حياتنا الثقافية طبقة من المثقفين الذين تثقفوا ثقافة اوروبية عميقة واقاموا في عقولهم عالما من القيم والمثل استمدوه من واقع هذه الثقافة التي اطلعوا عليها وخير من يمثل هذا الجيل العقاد والمازني وشكري من الرواد الاوائل في العالم العربي في مصر .

وكان الاثر الاول لهذا العالم المجرد من القيم والمثل الذي تكون في عقول هؤلاء المفكرين ان حدث صراع رهيب في نفوسهم بين عواطفهم ومشاعرهم التي مانزال تقبع في كهوفها مشدودة بألف قيد الى كثير من التقاليد القديمة التي تكونت من عصور الانحلال والرجعية ، وبين عقولهم التي تفتحت على عالم اكثر اشراقا وتحررا . وقد ادى هذا الصراع والانقسام في ذاتيتهم الى شعورهم بالضياع واليأس والقلق الذي يعبر عنه عبد الرحمن شكري تعبيرا صادقا عميقا في كتابه الاعترافات وهو يتحدث عن طبيعة هذا الجيل من الناحية النفسية فيقول « الشاب المصري في حالة امتنا الاجتماعية الحاضرة عظيم الامل ولكنه عظيم اليأس ، وكل منهما في نفسه عميق مثل الابد ، والسبب في ذلك ان حالتنا الاجتماعية تستدعي شدة الامل وشدة اليأس ، وما زلت اجد بين حالة الامة الاجتماعية وبين نفوس افرادها رابطة متينة . والشاب المصري يكثر من اساءة الظن وهي صفة اشتهر بها المصريون ، والسبب في سوء ظنه عصور الاستبداد الطويلة التي مرت بها مصر فانها ابقت هذا الارث في نفوس الافراد ، لان الاستبداد يبعث سوء الظن والشاب المصري ضعيف العزيمة كثير الاحلام والاطماع والاماني ، يمضي ايامه في الاحلام بدلا من ان يمضيها في مزاولة الاعمال ، وكذلك الخوف فان شجاعة الشاب المصري شجاعة متقطعة مبتورة تستمر من نفسها . واما خوفه فهو مبدأ عام والشاب المصري عنده ميل شديد الى مزاولة الاعمال العظيمة المجيدة ولكنه يعجز عنها ، والشاب المصري مهيج العواطف ولكنه

غير عظيمها ، وهو كثير الغرور لانه كثير الاحلام والاماني وهو ليس عنده شيء من الاعتماد على النفس . وهو شديد الاحساس ولكنه يبكي في ضحكه ويضحك في بكائه ... وهو كثير الحيرة والشك بالرغم من غروره .. لايعرف اي افكاره وعاداته القديمة خرافات مضرة ولا اي افكاره وعاداته الجديدة حقائق نافعة فهو من قديمه وجديده غارق بين لجتين او مثل كرة في ارجل المقادير ، فالى اين تقذف به المقادير ؟ »

هذه هي الصورة التي يقدمها عبد الرحمن شكري لهذا الجيل الممزق بين طموحه ويأسه ، بين قديمه وجديده ، الحائر المتشكك ، المغرور الذي تدفعه تناقضاته الى اليأس والحزن .

ولم تكن ازمة هذا الجيل نابعة من انقسامهم الداخلي وحده ، ولكن التناقض كان رهيبا ايضا بين عالم القيم المثالي الذي استمدوه من ثقافتهم الاوروبية وبين عالم الواقع الذي كانوا يعيشون فيه ، وكلما حاولوا المقارنة بين العالمين أحسوا بالمرارة الشديدة والخيبة ، لان الواقع لم يكن يستطيع ان ينبض ويستجيب مع قيمهم التي حاولوا فرضها عليه ، فأحسوا بالوحدة والانعزال عن عالمهم ، وانهم طبقة متميزة فريدة لاتجد صدى لها في الواقع الجامد فرفضوا واقعهم كلية ، ووقفوا منه موقف المعلم والمرشد ، وظلوا قابعين في عالم المثل المجردة التي تعيش في اذهانهم وحدها يبدأون منها ويعودون اليها ، ولم يلمسوا هذا الواقع ويتعاطفوا معه لانهم لم يبدأوا منه ، ولذلك عجزوا عن تصوير هذا الواقع والالتقاء معه ، وظل ادبهم في جملته عقليا منطقيا تجريديا ، ولذلك استفدنا منهم كمفكرين اكثر مما استفدنا كأدباء .

وكانت هذه النزعة الذاتية والصراع بينهم وبين انفسهم من ناحية وبينهم وبين المجتمع من ناحية اخرى ، من العنف والقوة بحيث ان بعضهم وجد الحل المثالي لازمته الذاتية يتمثل في اعتزال الحياة الادبية والفكرية اعتزالا كاملا كما حدث لعبد الرحمن شكري ، ولعادل كامل من الجيل الذي يليه ، وحل بعضهم هذه الازمة بان استهان بالحياة كلها فسخر من نفسه ومن الناس كما صنع المازني ، والبعض الاخر تحصن بكبرياء رهيبة قاسية رفع بها نفسه الى مصاف الانبياء كما صنع العقاد الذي ظل يعيش مسلحا بمنطقه التجريدي الشكلي الذي يستطيع به ان يثبت كل شيء . والاستاذ مطاع صفدي بينه وبين هؤلاء الادباء اكثر من وجه شبه ، فهو قد تثقف ثقافة اوروبية عميقة ولعله قرأ ماقرأه بطل جيل القدر في روايته « لزرادشت وماركس وسارتر وشو والاديب والكاتب المصري . » ولعله كان مهددا بان يتحول ايضا الى كاتب فردي منعزل يعيش في عالم من القيم المثالية المجردة ويتغنى بوحدته وضجره وقلقه ويأسه ويفكر في الوجود والعدم ، ويرفض الواقع بالكلية ويتحصن بالغرور والكبرياء الموهوم . ولكن ظروف الواقع العربي الراهن لاتتيح للاديب ان يتخذ مثل هذا الموقف ولا تعطيه التبرير لانعزاله ووحدته ، وذلك لان حالة الواقع تدفع الى الامل اكثر مما تدفع الى اليأس ، كما ان الواقع يستطيع ان ينبض ويستجيب لصوت الاديب ، ولم يعد المثقفون ثقافة اوروبية قلة ضئيلة لايزيد عددها عن افراد يعدون على الاصابع ، لكن دائرتهم اتسعت حتى شملت بعد الترجمات المتنوعة التي تخرجها المطابع كل يوم اولئك الذين قد لايجيدون لغة اجنبية ، ومن هنا يصبح استعلاء الاديب على واقعه استعلاء غير مبرر ولا منطقي .

كما ان الحضارة الاوروبية نفسها قد ظهرت فضيحتها ، لان الكثير من قيمها ومثلها لاينطبق على واقع الدول الاوروبية الاستعماري الاناني، وانما تقتصر اهميتهاودائرتها على محيط الاوروبيين وحدهم برغم انها لم تمنع اوروبا من التعرض لاكثر من حرب طاحنة اهدرت فيها كل قيمة للانسان ، وعليه فان المثقف العربي لم يعد يضطر اضطرارا الى ان يأخذ موقف التابع الذي ينظر الى هذه الثقافة نظرة التقديس ، ولكنه يستطيع ان يحدق النظر اليها وان يقف منها موقف المتشكك وان يأمل في ان يستطيع ان يقدم للانسانية قيما اكثر تلاؤما وخدمة لقضايا الانسان .

وقد بدأ مطاع كغيره من المثقفين ثقافة اوروبية بالمرحلة الذاتية ورفض الواقع العربي والاستعلاء عليه ، ويظهر هذا الاتجاه في انتاجه الاول في مجال القصة القصيرة ، وكون لنفسه عالما ذهبيا من القيم الاوروبية المجردة ولكنه لم يقف عند هذه المرحلة بل بدأ يشك في قيمة الثقافة الاوروبية، وانتهى من هذا الصراع الرهيب الى رفض الثقافة الاوروبية نفسها، ولكن رفضه للثقافة الاوروبية كان من العنف بحيث انه ظل رفضا مثاليا تجريديا ، انتقل بمطاع من مثالية ذهنية الى مثالية ذهنية جديدة،وتظهر هذه المثالية الجديدة في مقدمة مسرحيته « الاكلون لحومهم » التي يعلن فيها رفضه لكل التاريخ الانساني على اعتباره كذبة كبرى ويعلن رغبته في ان يبدأ الانسان من جديد ومن نقطة الصفر فيقول :

« يولد الغريب ، وهو يرفض ان يقع ضحية الاحراج القاسي السابق عليه ، ان يكون من اتباع ماركس الشرق او داروين الغرب ، ان يكون تابعا وليس مجرد مبتديء ، مباده رائد ، وينفتح الغريب على تصانيف الارض وجغرافية الحقد وتراث الكذب الطويل المنبث في كل معبد على ارض العبيد المزيفة .. ويرى الى الانسان ذلك الكائن العتيق التعب مازال متمسكا بفلسفة السر ، بفلسفة الكذب .. انه ينسب كل المصائب والكوارث الى الشيطان ، الى الخطيئة الاولى ، الى القدر ، الى السياسة ، الى لعنة غامضة تسري في دماءالتاريخ ، فكلما نما التاريخ كلما تضخم الوحش السري في اعماقه .. لقد كانت اسرار الاديان ثم عجائب العلم عقائد حديثة ، ثم مبادىء العصر من مادية او روحية ، من استعمارية او اشتراكية والكذبة تستمر ، والسر باق حيث هو ينخر في الظلام ويبعث على الرعب .. وغريب اليوم هو العربي الذي يحطماحراج العالم السابق عليه ، يصنع فرحا صغيرا ، يشق دربا ثالثا ، يكشف الاكذوبة ، يحطم السر المزيف .. »

وهكذا يرفض مطاع صفدي بمنطقه التجريدي كل تاريخ الانسانية وكل جهودها وافكارها ، معتبرا كل ذلك اكاذيب وزيفا ، ولم يدفعه رفضه الخضوع للثقافة الاوروبية الى العودة الى واقعه والتعاطف معه ، ولكنه رفض العالم بأسره ، وأعلن ان الانسان المعاصر يجب ان يكون وحده وان يبدأ من الصفر وان يحمل عبء حياته بلا مؤازرة من الاخرين ، انه يجب ان يكون كما تصف ليلى نبيل بطل رواية جيل القدر ص ٣١ « بلا ركيزة ، انه لابد ان يكون في الفراغ .. بدون صليب يركزه في الفضاء » وكما يصف نبيل نفسه ص ١٠٦ فيقول : « انني اليوم باختصار لا أطمع في شيء ، لا احترم احدا ، لا أعلم حقيقة ، لا أعتقد بعقيدة ، لااريد شيئا ، انني هكذا مجرد انسان يتجول ، لايريد مستقبلا ، لاينصب قيمة فوق رأسه ، انني اعظم من يلتهمه الفراغ ... »

وهكذا لم يتخلص مطاع من قيمه المجردة الذاتية ومن منطقه الفردي الذي يصبه على العالم كله صبا ، ولم يتحول الى التعاطف مع المجتمع والتصالح معه ولكنه ظل منتصبا فوقه مستعليا عليه ويمثل هذا الموقف وصفليلىلنبيل وهي تتحدث عنه الى هاني ص ٦٤ « نبيل نحات كبير ، العالم بالنسبة اليه ما في العالم من انسان واشياء وحوادث ان هي الا مادة خام يصنع منها مايريد ..

ـ أليس له نموذج

«هذا ما أشكبه.. وربما كانت تلك هيمشكلته انه يذيب ويسكب وينحت ويعمل مايعمل ويخلق مايخلق وانتتحسمن خلال كل ذلك ان هذاالصانع تائه نوعا ما ... هناك ، انه في اخر المطافلايعرف

ماذا يفعل او يعرفه كل المعرفة .. »

وهكذا فان الانسان العربي المعاصر كما يصوره مطاع صفدي لا يعترف للواقع بأي مقاييس موضوعية او وجود خارجي ، وانما يستقي كل احكامه من ذاته وحدها . والنتيجة المنطقية لرفض مطاع لواقع الانسانية كلها انه لم يتخلص من استغراق المفكر العربي في ذاتيته وكل مااستطاع ان يصنعه هو انه لم يكتف برفض الواقع العربي بقيمه ومثله وحدها ، ولكنه وسع دائرة الاستعلاء والرفض فرفض الواقع الانساني كله منذ اقدم العصور حتى اليوم ، وظل هذا الرفض ذهنيا تجريديا بلا رصيد من الواقع .

ولكن الموقف لم ينته عند هذا الحد فان الواقع العربي كما سبق ان قدمنا لايرحم الذين يقفون الان موقف المتفرج ، ليتقنوا بعزلتهم ويأسهم وضجرهم وقلقهم ، فكان مفروضا على مطاع ان يتقدم للمساهمة في تطوير هذا الواقع والسير في ركابه فأعلن في « الاكلون لحومهم » وفي « جيل القدر » عن ان الفرد العربي مدعو الى تغيير الواقع الانساني بأسره ، ولكن هذه الرغبة تظل رغبة مثالية غامضة لارصيد لها من الواقع ، بعد ان رفض مطاع ـ الواقع بأسره من قبل .

كما ان مطاع وبالرغم من رفضه الظاهري للثقافة الاوروبية فانه مازال عاجزا عن التخلص منها بعد ان ساهمت في تكوينه الثقافي ، ولئن كان المفكر يستطيع ان يزعم بانه يستطيع رفض الماضي والبداية من الصفر فما اظن ذلك سهل التحقيق في الواقع ، والناقد يستطيع ان يكتشف بوضوح ان مطاع يستخدم بكثرة اصطلاحات الفلسفة الوجودية من قلق ويأس وهجر ووحدة وتأكيده على حرية الانسان المطلقة وما يشعر بها في مواجهة هذه الحرية من رعب وفزع مايستحق وحده دراسة منفصلة .

وهكذا تتحدد ازمة مطاع في انه مازال مفرقا في ذاتيته رغم مايفرضه الواقع عليه من تخلص من هذه الذاتية ، رافضا للثقافة الغربية مع انه مازال مشدودا اليها وانه مازال من اجل ذلك عاجزا عن التلاؤم مع الواقع والتعاطف معه ولذلك فان عالمه مازال تجريديا ذهنيا بلا رصيد من الواقع .. وهذا ماجعل رواية مطاع اشبه بمغامرة من الناحية الفنية تعرض فيها الكاتب لكثير من الاخطاء الفنية مما يجعل بيننا وبين تقبلنا للرواية كعمل فني كثيرا من السدود والقيود .

ورواية مطاع تدور حول عالم ذهني محض ، وفي الوقت الذي كنا ننتظر فيه منه ان يقدم لنا تصويرا لمشاعر هذا الجيل في احزانه وافراحه وصراعه بين نفسه وبين مجتمعه ورغبته في ان يتخلص من هذه المعركة وان يظل صامدا رغم كل الظروف التي تحيط به ، وان يكون ايجابيا بناء بعد ان كان سلبيا يائسا ، اذا بمطاع يقتصر على ان يقدم لنا عالما خاصا به الى حد كبير ، عالما يسقط فيه مطاع على شباب الجيل مشاكله الذاتية الخاصة وافكاره المثالية التجريدية التي يحاول بها ان يتخلص من أزمته الذاتية وان يعلن عن نفسه من خلال شخصية نبيل وهو الشخصية الرئيسية في الرواية بطلا من ابطال الكفاح لا فيما يتعلق بالمحيط العربي وحده بل انه يمد منطقة هذه البطولة على الصعيد الانساني كله !!

ويفترض المؤلف من اجل ذلك فرضا يبلغ من الشذوذ الى حد كبير ، فالمؤلف يزعم لنا في الرواية ان الانسان يستطيع ان يكون فرديا الى اقصى حد ، يمارس حريته الفردية في أوسع صورها لايؤمن بعقيدة ولا يرتكز على ركيزة ويرفض الواقع كله ، ولا ينتظر عونا من احد ، يواجه مصيره وحيدا ويشعر بالعداء والاحتقار لافراد مجتمعه ويمارس العلاقة الجنسية مع اكثر من فتاة ، ويخون خطيبته في بيتها ، ويشرب العرق حتى يغرق فيه همومه الذاتية ، ويشعر بالعداء لاصدقائه ، ويعلن عجزه عن ان يكون زوجا ، ويتخذ من تجاربه الجنسية وعلاقاته مع المرأة مجرد حقل تجارب لكي يجعل تجاربه اكثر خصوبة ، ويتغنى بالموت والعدم والضياع والوحشة ، ولكنه مع ذلك كله يظل فنانا مشهورا يسحق الاخرين بكبريائه وتفوقه ، وبطلا مبرزا من ابطال العروبة تتحدث عن كفاحه المنتديات ، وتصل شهرته بالكفاح الى الطلبة العرب في باريس ويتخذه الشبان قدوة ويصبح الها من آلهة المصير !!

وهكذا يجمع المؤلف بين النقيضين ، ويحاول التوفيق بصورة غريبة بين حرية الفرد في اوسع صورها ، حريته المطلقة المثالية في ان يمارس كل غرائزه ونزواته وعواطفه وبين كونه مكافحا يلتزم بمسؤليته ازاء نفسه ومجتمعه وقضية الكفاح التي وهب نفسه لها !!

وكانت النتيجة الاولى لهذا الفرض التجريدي الذهني الذي جعله مطاع موضوعا لروايته ، ان رواية مطاع دارت في جو بعيد عن واقع هذا المجتمع ، وعن واقع هذا الجيل الذي حاول مطاع ان يتحدث عنه .

ولعل اخطر مشكلتين تواجهان هذا الجيل تتمثلان في تحقيق وجوده المادي عن طريق ان يضمن شباب هذا الجيل لنفسه حدا ادنى من الضمانات المادية التي تتمثل في قدرته على ان يجد طعاما بسيطا ولباسا ابسط وحجرة تؤويه ، وان يكون من حقه ان يجد الفتاة التي تحبه ويحبها فتاة بسيطة متوسطة الجمال على درجة من الوعي ، ليستطيع بعد ذلك ان ينطلق في معركة الحياة محاولا ان يكون نافعا لنفسه وللاخرين. ولكن المؤلف يرفض المشكلة المادية رفضا مطلقا فيقول متحدثا عن بطل روايته ص ١٥٠ « نبيل لايرى في العالم ابدا فقرا وان كان يرى زيفا او خطأ او تشويها في الخلق والتكوين » .

واذن فان على شباب الجيل ان يحاول تحقيق حريته الذاتية كما فعل نبيل بطل مطاع في روايته ، عليهم ان يشربوا العرق وان يعقدوا علاقات جنسية مع اكثر من امرأة وان يتنزهوا في السيارات الفاخرة وهم لايملكون في يدهم مايضمن لهم الطعام حتى اخر الشهر ، ولا تسمح لهم ميزانيتهم المحدودة بشرب زجاجة من البيرة !! انني اقسم لمطاع بالنيابة عن شباب هذا الجيل بانهم راغبون كل الرغبة في تحرير ذواتهم وممارسة هذه الحرية الى اقصى حد ممكن ، ولكن كيف يستطيعون ذلك وهم من اجل لقمة العيش مضطرون الى ان يقبلوا وظيفة في صحيفة لايرضون عن اتجاهها او عن مايضطرون لكتابته فيها ! ان تحقيق حرية الفرد ليس مسألة مجردة عن الظروف ، وقد كنا ننتظر من مطاع صفدي ان يكشف لنا عن الاسباب الحقيقية للضياع التي تسبب ازمة هذا الجيل ، بدل ان يقف داعيا لهم الى القيام باعمال عنترية يدركون فيها ما في الموت من روعة ، ويحققون حريتهم الى اقصى حد ممكن ، ويقومون بأعمال تتضاءل الى جانب روعتها كل اعمال البطل الرائع دون كيشوت !

هل جرب مطاع مرة ان يجلس على المقهى وليس في جيبه مايكفي لدفع ثمن كوب من الشاي ، وفي وجهه صفرة من لم يذق الطعام منذ الصباح، وهو مع ذلك يحاول الابتسام لرفاقه ويتناقش معهم في قضايا السياسة والادب ، او لم يلتق مطاع بهذه البطولات الحقيقة لابناء هذا الجيل ام انه حين التقى بهم رفضهم كما رفض الواقع كله على اعتبارهم ظواهر تافهة تمنع تفكيره الميتافيزيقي في الحرية المثالية لذاته من الانطلاق الى آفاقه الهلامية الغامضة !!

ولعل من اكثر مايدفع القارىء الى الدهشة في رواية مطاع هو وصفه لبطل روايته نبيل بانه شاب فقير ، ومع ذلك فانه يعيش حياة يحسده عليها كثير من الاغنياء ، حتى انه كان يستورد العرق من الشرق بطرق سرية غامضة ، وهو يحارب بين رجال جبهة التحرير الوطني في الجزائر. ماأروع هذا المحارب !!

وقد حل مطاع صفدي في روايته المشكلة الجنسية كما يعيشها شباب هذا الجيل ، فالابواب في روايته مفتحة للعلاقات الجنسية والحب بشتى صوره ، بصورة لاتجعلنا نخجل من مقارنة هذا العالم الذي يقدمه لنا مطاع على اعتباره صورة للحياة في دمشق باكثر اجواء باريس تحررا وانطلاقا ، فنبيل بطل الرواية يركب مع خطيبته هيفاء في سيارتها وليلى صديقته تجلس في المقعد الخلفي في العربة ، ويطوق نبيل خطيبته بساعده وحين تعلن ليلى عن شعورها بالبرد يندفع نبيل من المقعد الامامي بكل بساطة وينتقل الى المقعد الخلفي حتى تستطيع ليلى ان تشعر بالدفء ، وفي منزل هيفاء المنعزل يترك نبيل وهيفاء ليلى تعزف على البيانو ، ليدخلا وينام في حجرة واحدة وفي سرير واحد !! ويجمع نبيل بين علاقته الجنسية بليلى وهيفاء خطيبته دون ان يشعر بالخيانة لانه لايفهم معنى لهذه الكلمة ، وكما يجمع نبيل بين امرأتين تجمع ليلى بين نبيل وصديقه وتنتقل من ذراع رجل الى ذراع الاخر وهي ماتزال تشعر بانها اطهر من

عذراء !! ابطال مطاع لايعترفون بالواقع ولا يشعرون بالذنب ويبحثون في علاقاتهم هذه عن معنى وجودهم الضائع ، ولا يعترفون بالقيم ومن اجل ذلك فهم احرار في عدم احساسهم بالمشكلة الجنسية في الشرق وجذورها العميقة ، وما يحيطها من شعور بالذنب وتقاليد عتيقة بالية مترسبة من عهد الاقطاع ، وعدم قدرة الشباب حتى على اللقاء الصريح الحر ، والسرية واللصوصية في علاقاتهم وعدم قدرتهم المادية على السير بعلاقاتهم في طريقها الطبيعي وفزعهم من تحمل مسؤولية الارتباط، من حق ابطال مطاع الا يشعروا بكل ذلك او ببعضه وان يمارسوا الحب والعلاقات الجنسية كمجرد تجربة للبحث عن الذات او تخلص من الضياع، ولكن ان تكون هذه هي دمشق ! وان يكون هذا الجيل الذي يصوره مطاع هو صورة جيل الشباب العربي في دمشق فهذا مالا يقتنع به احد !

ان العالم الذي يصوره مطاع لايعيش الا في ذهن مطاع وحده ، وتشحب فيه ملامح الواقع الى حد كبيرحتى لتوشك ان تختفي ، ولولا اشارة المؤلف الى دمشق واحيائها لما استطعنا ان نتعرف من روايته على دمشق ، ولولا تسميته لابطاله بأسماء عربية لامكن ان يوجد هؤلاء الابطال في أي بيئة غير البيئة العربية !

وكما يسيطر المنطق الشكلي التجريدي على موضوع الرواية فانه يسيطر ايضا على طريقة عرض الكاتب لموضوعه .

فمطاع يتجاوز عن البديهية الاولى من بديهيات الفن الروائي والفنون جميعا وهي ان الفن تصوير لاتقرير . ان الفنان حين يعالج موضوعه لايلقى احكاما جاهزة متحجرة على الحياة والناس ، وانما يختار فترة من حياة مجموعة من الشخصيات لكي يكشف لنا من خلال سلوكها وحركتها عن الاحساس الذي أحس به نحوها ، وبحيث يحاول عن طريق عرضه لتفاصيل سلوك الشخصيات وحركاتها ان يبرز في النهاية مايريد ابرازه ، بحيث ان كل فصل من فصول الرواية او صفحة من صفحاتها تكسب القارىء مزيدا من التعرف على الشخصيات واحساسا بالاقتراب منها !

ولعل من اهم مايميز الادب والفنون بصورة عامة انها اكثر اقناعا من غيرها من العلوم الانسانية ، لان الفنان يبدو اكثر عفوية من الفيلسوف او عالم الاجتماع ، انه يختفي بأفكاره وميوله خلف ستار الواقع ويحاول ان يقنعنا بما يبدو من عفويته انه لا يفرض علينا ما يراه فرضا . ولعل اصالة الفنان الحقيقي تظهر في انه مهما كان عميق التفكير فان تفكيره لايظهر بصورة مباشرة ولكنه يختفي خلف ستار من العفوية .

ليس من حق الروائي ان يطلق احكاما جاهزة على الحياة والناس ، فيحكم بأسلوب مباشر على انسان ما بانه كان شجاعا او جبانا ، لان هذه الاحكام المطلقة ليست من طبيعة الفن من ناحية ، ولانها من ناحية اخرى احكام كاذبة ، لان الانسان لايمكن تصنيفه بسهولة داخل هذه التعميمات ولكن الفنان الحقيقي يكتفي بان يعرض على القارىء صورة من صور السلوك الانساني دون ان يحاول تصنيفها ويترك القارىء ليحكم على هذه الصورة بما يستطيع ان يستنتجه .

ومطاع في الرواية لا يلجأ الى التصوير ولكنه يلجأ الى اطلاق الاحكام على الناس وعلى الحياة ، هذه الاحكام التي تبلغ من قسوتها حد وصف البشر بانهم قاذورات وانهم عفن ونتن ، ولا يصح الاعتذار عن مطاع بان مثل هذه الاحكام قد وردت على لسان شخصياته فان مطاع هو الذي يتكلم على لسان جميع شخصياته وهذه مسألة اخرى سنعالجها فيما بعد . وقد ادت هذه النزعة التقريرية التي تتمثل في اطلاق الاحكام الجاهزة الى شعور القارىء بالملل من الرواية وذلك لجمود حركتها ، وذلك لانه كلما استمر القارىء في القراءة لم يزدد تعرفا على شخصياتها وانما تعرض لهذه الاحكام المقررة الجاهزة على الحياة والناس ، التي تتكرر باكثر من صورة وفي اكثر من اسلوب ، بحيث يشعر القارىء ان المؤلف لانه فقد الاتصال بالواقع ، اكتفى باطلاق الاحكام عليه ، ففقد القارىء التعاطف مع شخصياته والرغبة في متابعتها لان الرواية فقدت دينامية الحركة ، ولان القارىء يشعر بانه ليس لدى المؤلف ما يضيفه وما يدخره للقارىء . وتشعرنا الرواية من اجل ذلك بان المؤلف يفكر اكثر مما يصور وانه اقرب الى الفيلسوف منه الى الاديب .

واذا كانت النزعة التقريرية قد ساعدت على تجمع احداث الرواية وقتلت حيويتها فاننا يمكن ان نضيف الى هذه النزعة نزعة اخرى تتصل بفلسفة المؤلف في تحديده للعلاقة بين الانسان والظروف المحيطة به ، ان مطاع يجب ان يجرد الفرد من تأثير الظروف الخارجية عليه ، ويعتقد ان الانسان حين يعيش حياته ويحقق حريته ينبغي ان يحققها وحده ، وان الظروف الخارجية ليست الا الوسيلة التي يحاول الانسان ان يبرر بها نفسه امام ذاته ، ومعركة الفرد في هذه الحالة معركة فردية صرفة تدور داخل ذاته بعيدا عن العالم والناس والاصدقاء والظروف وهو يقول واصفا هيفاء بطلة روايته ص ١٤٢ « وكلما تعمقت شخصيتها وكلما اغتنت تجربتها الواقعية والثقافية ، كانت تتضح لها حقيقة ثابتة وهي ان للانسان ، أولها خاصة نوعا من الوجود الداخلي الصميمي الذي لا تتحكم فيه اوضاع اجتماعية ، او طبقية خارجية»ومعنى ذلك في رأي المؤلف ان الانسان كلما زاد وعيه اشتد يقينه بان حقيقته لاتتأثر بالظروف الاجتماعية والطبقية ، وليس مجالنا ان نناقش المؤلف في خطأ هذا الرأي او صوابه ، فان من حق المؤلف ان يعتنق مايريد من أراء ، ولكنا نحب ان ننبه الى ان هذا الرأي اذا آمن به الفنان بصورة مطلقة وكان يعتقد بحرفيته ، فانه يصبح شديد الخطورة على فنه ، وذلك لان تطور الانسان النفسي والحركي لا يصبح في هذه الحالة متأثرا بالظروف الخارجية ومتفاعلا معها ، ولكنه يقف معزولا عن هذه الظروف ، ومعنى ذلك ان الاحداث الخارجية في القصة تصبح مفصولة عن الشخصيات لاتتبادل التفاعل معها ، فالشخصيات تقف في عزلتها تراقب عالمها الداخلي وتحاول تحقيق حريتها ، والاحداث تسير فيالخارج دون ان تمس هذه الشخصيات الا مسا خفيفا ومن الخارج فقط . واذا كان مثل هذا الاتجاه يضعف من تأثير الحركة الخارجية في القصة فانه يضعف ايضا الحركة الداخلية داخل الشخصية ، فما دامت الشخصية الانسانية تحتفظ بصميميتها وحقيقتها مفصولة عن الظروف ، فان تأثير الظروف الخارجية عليها يكون تافها وضئيلا وبذلك تفقد الشخصية الحركة الداخلية كما فقدت من قبل الحركة الخارجية ، ويفقد العملَ الفني بالتالي اهم عنصر من عناصر نجاحه ، فاذا اضفنا الى ذلك ان المؤلف لايقدم لنا الحركة الخارجية لابطالهم والتي تتمثل في مظاهر سلوكهم ، ولا الحركة الداخلية التي تصور مشاعرهم النفسية ، الا في صورة احكام تقريرية يصدرها عليهم ، فاننا في هذه الحالة قد ندرك السر في الجمود الذي يسيطر على جو الرواية والذي يحيلها الى مجموعة من الاحكام التقريرية يرددها المؤلف على لسانه ولسان ابطاله والتي تتكرر من اول الرواية الى اخرها .

ولعل المؤلف احس بمدى ماتتعرض له روايته من جمود ورتابة فاستخدم كل أساليب السرد التي عرفها الروائيون جميعا ، منذ ان عرفت الانسانية الرواية حتى عصره الذي كتب فيه روايته فأستخدم المونولوج الداخلي، والسرد على لسان الشخصية ، ولم يقتصر على شخصية واحدة كما يفعل الكثير من الروائيين ، كما انه استخدم السرد على لسان المؤلف واستخدم المذكرات الخاصة والرسائل والذكريات ، وكل مايخطر ببالك من وسائل استخدمها غيره من القاصين ، ونحن نعرف في حدود قراءتنا للاعمال الروائية ان المؤلف قد يستخدم وسيلة او وسيلتين من هذه الوسائل ليحقق مايريد ، ولكن مطاع استعان بكل هذه الوسائل في عمل واحد . فالرواية تبدأ بليليوهي تتحدث في شبه منولوج داخلي تتجه به الى نبيل وما يكاد القارىء يطمئن الى ان ليلى هي التي ستتولى عملية السرد في الرواية حتى ينقلنا المؤلف الى مذكرات ليلى بعد ان ورد على لسان ليلى انها بدأت بكتابة مذكراتها منذ بداية تعرفها بنبيل وانها لم تنقطع عن كتابة هذه المذكرات حتى الليلة التي عزمت فيها ان تخط هذه القصة . ويشعر القارىء بعد هذا الاعلان الصريح ان ليلى ستعرض القصة باسلوبها من خلال مذكراتها ، ولكن المؤلف لا يريحنا الى هذا الافتراض كثيرا لانه يبدأ في اول القسم الثاني بالسرد على لسانه ، ولا نكاد نمضي في السرد قليلا حتى يبدأ نبيل في السرد على لسانه ، وتستمر الدائرة تدور من مذكرات الى رسائل الى سرد

على لسان المؤلف الى سرد على لسان الشخصيات ، وقد كنا نستطيع ان نغفر للمؤلف ذلك كله لو ان ذلك اكسب الرواية بعض الحيوية التي افتقدتها ، ولكن المؤلف قد طبع كل ذلك بطابعه ، فاننا لانجد اختلافا في النوعية بين المذكرات والذكريات والرسائل ، وبين ان يسرد المؤلف بلسانه او بلسان غيره من الشخصيات فالمؤلف يترك طابعه على كل شيء ، الطابع الفكري التقريري . ويستطيع القارىء ان يقارن بين كل اساليب السرد التي اوردها المؤلف في روايته فلا يجد فرقا بينها ، ولو كان المجال متسعا لوضعت فقرات تمثل كل وسائل السرد التي استخدمها المؤلف ليدرك القارىء انه لا فرق لدى المؤلف بين أسلوب المذكرات وأسلوب الرسائل ، وبين اسلوب المؤلف نفسه في السرد او اسلوب اي شخصية من شخصياته ، كما انه لا فرق بين المنولوج الداخلي او الحوار . واذن فقد حملنا المؤلف اكثر مما نطيق بتشتيتنا بين هذه الاساليب المتعددة ولو حاول سرد الرواية ـ كما يفعل عباد الله جميعا ـ بلسانه هو او بلسان شخصية من شخصياته لاراح واستراح ما دام القارىء لا يلمح ضرورة فنية واضحة لكل هذه الاساليب المتعددة في السرد . وقد اضطر المؤلف مع ذلك الى الاعلان عن نفسه في كل لحظة حتى انه وقع في كثير من المفارقات الغريبة ، فهو يقطع رسائل جوليا لحسان مثلا معلنا انه أحس بان هذه الرسائل لا تحقق اهدافه التي يريدها ويستسمح القارىء في ان يتحدث بنفسه وبأسلوبه ، ثم انه يعرض علينا على لسان هيفاء لا من خلال تصوراتها هي كل المشاعر التي دارت في نفسها قبل ان تموت !!

واذا كان المؤلف قد فرض منطقه التجريدي الذهني على كل شيء، فانه فرضه ايضا على منطق تطور الاحداث في روايته ، بحيث اصبح المؤلف يمثل القوة الوحيدة التي تتحكم في كل احداث الرواية ، وفقدت الرواية منطقها في التطور الطبيعي كعمل فني يبدو انه مفصول عن ذاتية المؤلف ، ولم يعد هناك ترابط متصل يتحرك بالرواية حركة دينامية من مرحلة الى مرحلة . وانما يتحكم في اختيار احداث الرواية رغبات الكاتب وحدها ، مما يجعل احداث الرواية تبدو في كثير من الاحيان مفككة غير مترابطة ، وقد سبق ان تحدثنا عن ان الكاتب لا يعترف بالتفاعل بين الشخصيات والظروف الخارجية داخل العمل الفني ، ومن هنا اعطى مطاع نفسه كل الحق في ان ينقل الشخصيات الى اي مجال يريده ويسحبها على وجهها الى اي بيئة يريدها ، بحيث يشعر القارىء انه يستطيع ان يستغني عن اي مشهد من المشاهد التي يقدمها المؤلف او يضيف اليها ما يشاء من المشاهد دون ان تتأثر الرواية في قليل ولا كثير !!

فحين يحلو لمطاع مثلا ان يتحدث عن العمال وان يبعد بروايته قليلا عن جوه وجو حوادث المثقفين ليقدم لنا مزيدا من تصوراته واحكامه عن هذه الطبقة الاخرى ، يفتعل حوادث اقرب الى المغامرات الرومانسية التي تقع في الروايات البوليسية منها الى واقع الحياة،فهيفاء الارستقراطية المدللة تعجب بغلام يبيع الصحف على مقربة من بيتها « حتى كانت امسية باردة قليلا ولكن دون رياح او امطار ، فقد وقفت امامه سيارة اجرة وفتح الباب ، ورأى صبيا بملابس خلقة ، وفقر محمد (بائع الصحف) فاه لحظة ثم قفز الى السيارة .

جلس بجوارها دون ان يسأل ... حتى قالت .. ستعطيني جزءا من هذه التي تقبض عليها « تقصد الجرائد » فاجاب وهو ينظر امامه : اليست ملابسي هذه التي خلعتها عني العجوز ؟

اليست تناسبني .. اعني تناسب الشخصية التي اتقمصها . لقد رفعت شعري تحت هذه القبعة الجوخية .

ـ ولكن وجهك نظيف جدا ، ناعم جدا .. ان شفتيك شديدتا الحمرة . ـ قل اين يجب ان تقف السيارة من اين نبدأ ؟

. . . . . .

ـ انك لا ترحب بي اليس كذلك ؟ ـ لا اعرف ماذا اصنع بك

ـ لن اضايقك ـ افرض انني زميل لك .

ـ ليست نزهة على كل حال .

ـ أترى انني اطلب نزهة .. كف عن هذا التحقير يا محمد

اول مرة تناديه باسمه . وقال : ـ ولكن الجولة قد تمتد بنا ساعات .

ـ لا باس ... تدبرت كل شيء ... اخبرت اهلي انني سأنام عند عمتي ... فانا احيانا اقضي عطلة الاسبوع عندها » وهكذا تتزيا هيفاء بزي بائع للجرائد وتنطلق مع محمد في صورة رفيق له وكل ذلك لكي ينقلنا المؤلف نقلا الى بيئة العمال ، وتأمر هيفاء السائق بالتوقف وتدخل هيفاء مع محمد الى خمارة حيث تدهش هيفاء من ان زبائن محمد في الخمارة من الطبقة الدنيا كما يبدو ذلك من وجوههم المرهقة ، وملابسهم الممزقة وسلوكهم الجلف غير المؤدب . وينتهز المؤلف فرصة هذه المغامرة ليحدثنا عن تتبع العمال للاحداث السياسية ثم تستمر المغامرة حتى تصل الى نهايتها البوليسية فيحضر رجال التحري ويلقون القبض على جميع الموجودين بالخمارة ، حيث ينتهز المؤلف الفرصة ليتحدث عن شجاعة العامل ابو عبدو وشهامته امام رجال التحقيق ، واتهامه لرجال العهد بالخيانة ، وتبيت هيفاء ومحمد في السجن حيث يطلق سراح الجميع في الصباح ما عدا العامل ابو عبدو .

والواقع ان كل احداث الكفاح في الرواية تبدو مفروضة فرضا عليها وهذا هو الاحراج القاسي الذي وقع فيه المؤلف ، وذلك لان ابطال الرواية الرئيسيين الذين يركز المؤلف جهده عليهم مجموعة من الشخصيات الضائعة الذين ما زالوا يبحثون عن حقيقتهم ، وعلى قمتهم بطل الرواية الرئيسي ، الذي يعيش في الفراغ بلا ركيزة ، ولا يؤمن بشيء ولا يحترم احدا ، ولا يعتقد بعقيدة ، وعليه فان المنطق الطبيعي للرواية كان يفرض على المؤلف ان يبعد ابطاله عن مجال الكفاح الايجابي ، حتى يجدوا ولو قدرا ضئيلا من نفوسهم الضائعة او يؤمنوا ولو ايمانا قلقا مهزوزا بالاهداف التي يعملون لها ومن اجلها ولعل المؤلف لو وقف بروايته عند هذا الحد لكانت الرواية اكثر تماسكا ولكن المؤلف ما كان يستطيع ان يواجه الواقع بعمل يخلو خلوا كاملا من دور « جيل القدر » في الكفاح من اجل القضية العربية ؟ وعليه فان المؤلف في حديثه عن دور ابطاله في مجال العمل الايجابي كان يلجأ الى وسيلة من وسيلتين ، فهو احيانا يختصر هذا الدور اختصارا ممثلا بان يطلق عليه حكما مقررا كما حدث عندما اراد ابراز دور المنظمة التي ينتمي اليها نبيل ! فأختصر هذا النضال كله في عدة اسطر وهو يتحدث عن علاقة هيفاء بنبيل صفحة ٢٠٤ « واحبت اشياءه تلك كما احبته هو ... وكأن ما تسمعه عن اخبار منظمته واعمالها ضد الديكتاتورية والبطولات العربية التي يبرز من خلالها وجه هذه المنظمة. ليس فقط في هذه المرحلة ، بل منذ عشر سنين او اكثر .. »

وهكذا اختصر المؤلف كل البطولات التي قامت بها هذه المنظمة في هذه الاسطر القليلة ، لكي لا يعرض نفسه لتصوير هذا الكفاح الايجابي . بل ان العمل الوحيد الذي حاول نبيل واصدقاؤه ان يقوموا به وهو قتل الدكتاتور ، كان المؤلف حريصا على ان يكون الدافع اليه دافعا ذاتيا صرفا ، فهم يريدون قتل الدكتاتور لانهم يريدون ان يمارسوا حريتهم فقط ، وهم لايقتلونه من اجل عقيدة ، ولا لخيانته لقضية العروبة ولكنهم يقتلونه لانهم يريدون فقط ان يقتلوه ، لكي يمارسوا حريتهم في القتل ، وهكذا تحول العمل الى عمل ذاتي صرف وعندما فشلوا في هذا العمل ، بمصادفة من المصادفات كان فشلهم قاسيا عليهم لانه كان هزيمة ذاتية لكل منهم في تحقيق حريته ، فانتحرت هيفاء بعد قليل ودخل اخوها الى مستشفى الامراض العقلية وهرب حسان بصورة رومانسية الى حلب وذهب اخو ليلى الى الجزائر ... الخ

اما الوسيلة الثانية التي لجأ اليها المؤلف لكي يقدم لنا صورا من صور النضال العربي فهي الهروب بشخصيات من دمشق،الى مناطق اخرى مثل حلب والجزائر ، ولو كان انتقال المؤلف بابطاله منطقيا ومعقولا

لما كان لاحد اعتراض على الوسيلة التي لجأ اليها المؤلف ، ولكن هذا الانتقال كان يأخذ في الغالب شكلا اندفاعيا قد يتفق مع تصور المؤلف الخاص لابطاله الذين يتحركون بعفوية كاملة ودون محاولة البحث عن تبرير لتصرفاتهم او اخضاعها للتفكير العقلي ، ولكنه في احيان كثيرة لا يتفق مع منطق الواقع ، فحسان شاب مكافح يعول اسرته من عمله ، ولكنه بعد فشل محاولتهم لقتل الدكتاتور يترك وظيفته دون ان يفكر في مصير ابويه او مصيره هو ، ويقضي عدة ايام متسكعا في حلب ليعيش على هذه الصورة صفحة ٢٨٩ « لقد وجدتني مسافرا الى حلب لا لغاية ما الا لالقي نفسي في ازقة لا اعرفها ولاستمع للهجة ما طرقت اذني من قبل ، ولارقب الشمس الصحراوية تسكب ضوءها العنيف الصاد على البيوت البيضاء والصفراء ..... اتيت الى هذه المدينة اذن دون ان احدد لي قصدا معينا ، كل ما ابتغيه هو ان اقترب بنفسي الى مدينة تظل تجهلني واجهلها ما استطعنا الى ذلك سبيلا .. قضيت الاسبوع الاول بين المقاهي والشوارع ودور السينما .. اجلس الساعات الطوال على كرسي واحد، حتى يكاد احساسي بجسدي يتحد مع احساسي بالخشب الذي يلتصق به لحمي ، دون حركة حقيقية ، منذ ساعات الصباح الباكر ، تجعلني افصل الاحاسيس عن بعضها » . ويتعرف حسان بعد ذلك بعامل يسمى « رامز » ثم يشتغل عاملا في مصنع معه ويجد نفسه بعد ذلك في طليعة الحركة العمالية في المدينة وعلى هذه الصورة يجد المؤلف فرصته ليحدثنا عن الحركة العمالية حسب تصوره لها وكفاحها من اجل التحرر والتضامن والعوامل التي تتلاعب بهذا الكفاح !!

وحين يريد المؤلف ان يتحدث عن الجزائر ينتقل ببطله « نبيل » الى هناك ، ولكن المؤلف لا يقدم لنا صورة لهذا الكفاح البطولي الرائع على هذه الارض المجاهدة بقدر ما يحدثنا عن ازمة بطله نبيل الذاتية ، الذي ذهب الى الجزائر ليكشف للجزائريين عن روعة موتهم وليكتشف ان الجزائريين يمثلون ايضا في كفاحهم وموتهم . فهو يقول موجها حديثه الى القائد عمر الجزائري « أوه ... انني اريد ان يموت احدنا لانه يموت .. لانه هو هذا الموت ليس الا ... ثم انني اكره ان يموت احدنا من اجل الشعب الجزائري او العراقي او السوري .. ان العربي يموت اليوم لانه هذا هو مصيره .. لان لا شيء يمكن ان يبرر هذا الموت ... لا لشيء حتى الانسانية كلها حتى التاريخ والاله والفلسفة.. انه يموت ببساطة ، ولكنه بعمق لا قبل لاحد بأستيعابه .. ما دمت اذن تحتقر حتى التبرير ، فلماذا تندفع بكل قواك لتثقيف جنودنا وضباطنا بالمعاني الثورية العربية ؟

ـ اوه انني افعل ذلك لكي يدركوا في اللحظة الحاسمة ان موتهم اعظم من اي معنى اخر تعلموه ... اعظم من اي فكرة تبنوها ... ولهذا فهو ابسط من اي شيء اخر على الارض .. ليتنا ندرك هذه الحكمة في الوقت المناسب ، قبل فوات الاوان . اوه عفوا .. لست اقصد هذا التفاضل بين الموت ومعناه .. انما اردت فعلا . اردت ان .. اه يا عامر لن استطيع التعبير الحقيقي

ـ انت تجهل ما يحرك قلقك المجنون هذا

ـ بل قل انني لا استطيع ان اكون الا هذا .. فانا بدون وصف شامل حقيقي ، استمع الي جيدا يا عامر .. انا مصاب بمرض خطير .. بداء ... بداء عدم التصديق لكل شيء ، لكل عمل مهما كان كبيرا او صغيرا . كأنني في حلم ، احس نفسي والاخرين .. الاخرين كلهم .. احس انني ممثل وانهم ممثلون .. وان المسرح كبير .. كبير جدا بحيث اختلط فيه الممثلون والمؤلفون والموسيقيون . والمتفرجون اخيرا .. وانا لم آت الى هنا الا هربا من التمثيل .. جئت لكي اعيش الرعب الحقيقي امام جهنم العدو والموت الحقيقي على مقصلة الجلاد . ولكنني وجدت اخيرا نوعا من الممثلين . هل تصدق ان الفرد منكم يمثل حتى وهو يموت ... »

وهكذا تشحب صورة الواقع الجزائري الرائع ليشغلنا المؤلف بأفكار بطله الغريبة الشاذة الذي اكتشف بالوهيته ان الجزائريين نوع اخر من الممثلين لانهم لا يعرفون كيف يموتون بلا تبرير ولذلك حضر بنفسه الى الجزائر ليعيش الرعب الحقيقي امام جهنم العدو من ناحية وليعلم الجزائريين روعة موتهم وعظمته من ناحية اخرى !!

واذا كان مؤلف « جيل القدر » لا يعترف بحقيقة الاحداث داخل العمل الفني وترابطها ويعطي لنفسه كل الحرية في التنقل الى اي مجال يريده ، فان روايته لذلك اكثر ميلا لان تكون من ذلك النوع الذي يطلق عليه النقاد اسم قصة « الشخصية » وهي القصة التي يقصد بها المؤلف الى تصوير شخصية واحدة لا قطاع بأسره من المجتمع وهو في هذه الحالة ينتقل بشخصيته الى مجال يريده لكي يوضح لنا جانبا من جوانب هذه الشخصية وسلوكها في شتى المجالات والبيئات ، وهو من اجل ذلك حر في ان لا يخضع لحقيقة الحدث داخل العمل الفني ، والنقاد يعتبرون قصة الشخصية مرحلة من مراحل تطور الرواية وان كانت مرحلة مختلفة بالقياس الى الرواية التي يبدو التفاعل فيها بين الاحداث والشخصيات كاملا ، بحيث يمهد سلوك الشخصيات لوقوع الاحداث ، كما تؤثر الاحداث بدورها على تطور الشخصية وتكشف لنا جوانبها المختلفة ، والبطل في قصة «الشخصية» يظهر واضحا يركز عليه المؤلف كل الاضواء ، اما القصة الاخرى فان البطولة فيها تكون مشتركة بين البطل وبين الاطار الاجتماعي الذي يعيش فيه بحيث لا يمكن فصل احدهما عن الاخر او تركيز الاضواء على محور من المحورين وحده .

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ

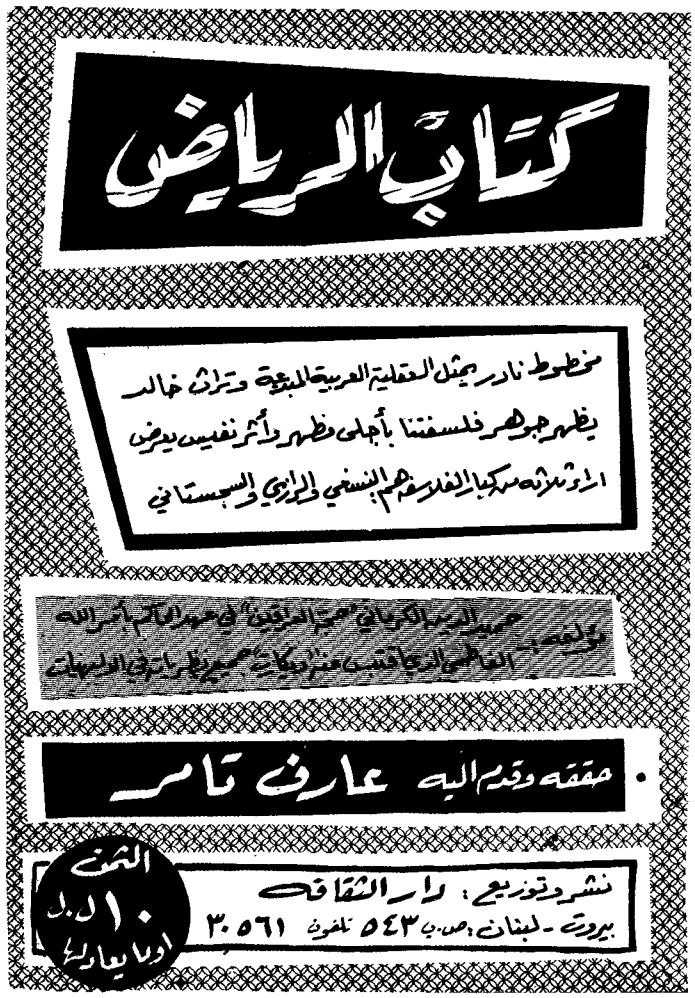

جيل القدر ومطاع صفدي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٣ ـ

وفي الوقت الذي نصف فيه رواية مطاع بانها رواية تركز على تصوير الشخصية ينبغي ان نكون على حذر ، لان مطاع لا يعطي شخصياته اي معنى من معاني الحرية ، وذلك لانه يخضع هذه الشخصيات لفكرته من ناحية وللتجريد من ناحية اخرى ، وقد نتج عن ذلك عدة نتائج شديدة الخطورة من الناحية الفنية من اهمها ان المؤلف شديد القسوة على الحياة والناس ، وذلك لانه لا يعمد الى تصويرهم ولكن الى اصدار الاحكام عليهم ، وحين يقيس افكارهم واعمالهم يقيسها على ضوء فكرته التجريدية عن البطل والبطولة ، فهو يعلن اكثر من مرة اما على لسان ابطاله او على لسانه هو بان الانسان الحقيقي لم يوجد بعد ، وان الانسانية عفن ونتن وقذارة ، بل ان نبيل بطل الرواية اعلن اكثر من مرة انه لا يحترم احدا ولا يثق في حقيقة . وان كان قد اعلن في مناسبة اخرى صفحة ٣٧٦ انه لا يحترم ولا يحب من ابناء جيله جميعا الا رجلا واحدا سماه « الرجل الهادىء » وهو زعيم المنظمة التي ينتمي اليها !! وحين يتعرض المؤلف لبعض الشخصيات التي تمثل بعض الاتجاهات المنحرفة يضع فوق رؤوسها كل شرور الارض من مادية ومعنوية ! فهو لا يكتفي بالتشويه المعنوي لهذه الشخصيات ، ولكنه يعطيها اقبح الصفات المادية الى جانب ما يصفها به من خيانة وانتهازية وحقارة ، ولا اعتراف عند المؤلف بالضعف الانساني ولا تفسير لديه او تحليل للانحراف والضعف ، لانه لا يؤمن بالتفسير والتبرير ، ولذلك فان هذه الشخصيات المنحرفة كثيرا ما صورها المؤلف في صورة « كاريكاتورية » تجعل القارىء اميل الى الضحك عليها منه الى الاقتناع بها وبجديتها . وانظر الى الصورة التي يقدم بها المؤلف مثل هذه الشخصية التي التقى بها نبيل في السجن صفحة ٤٢٩ « امامي على السرير المقابل ـ شارب كث ووجه مفولي واستلقاءة مليئة على اغطية صوفية سميكة ، وقرآن بين اليدين ونظرة جامدة دائمة الى الكتاب والينا احيانا . انه مجرم كان قد قتل شابا صحفيا عربيا منذ ايام الحكم الوطني المزيف . لقد راقبته وهو يستيقظ منذ الفجر . يتوضأ ويصلي ، ثم يرجع الى قراءة القرآن . حركته الوحيدة هي تنقله بين اوقات الصلاة والمرحاض ..» ويدخل السجن صحفي من طرابلس لبنان يصفه المؤلف ايضا بانه مأجور شتم الزعيم فأختطفه رجال المكتب الثاني « وعندئذ اتجه نحوه ذلك المجرم الاصفر وصرخ بوجهه كيف يحق لك وانت كافران تنتقد رجلا مسلما » وبهذه الصورة القاسية التقريرية يقدم لنا المؤلف اغلب هذه الشخصيات المنحرفة .

والمؤلف لا يكتفي بهذه القسوة التجريدية على شخصياته، ولكنه يفرض نفسه على سلوكهم كله ، على حياتهم وموتهم ايضا !! ويضحي بهم جميعا على مذبح منطقه الشكلي ، ولعل اغرب ما يقدمه المؤلف في هذه الناحية شخصية هيفاء خطيبة نبيل وحبيبته ، فهي شخصية من اسرة غنية تتوافر لديها كل اسباب الترف والرفاهية تقتني سيارة فاخرة وتوصي على ملابسها وعطورها من افخر المحلات في باريس ، ولم يستطع اهها ان يفرضوا عليها زوجا لا تحبه، وهي تميل الى الثرثرة ، ومع ذلك يفرض عليها المؤلف التعلق بنبيل الذي يناقش كل صغيرة ، وكبيرة ولا يعترف بالحب ، وتتصرف معه في حرية وانطلاق ، ويفرض نبيل على هذه الفتاة البحث عن حريتها الداخلية الكاملة ووحدتها ، وتصل هذه الفتاة الى هذا الشعور الكامل بالوحدة وانها تتحمل عبء حياتها وحدها بلا سند او معين ، وحين تبلغ هذه المرحلة يكون نبيل في قمة اعجابه بها ، ولا تقتصر تصرفات الفتاة الاسطورية على هذا الموقف ، ولكن المؤلف يقرر ان يضحي بها لتلتقي بروعة العدم والموت حين احست بانها غير قادرة على ممارسة حريتها فتنتحر ، وهكذا اعطى المؤلف نفسه حق التصرف في حياة هذه الفتاة وموتها ايضا . في اي بقعة من بقاع الارض يمكن ان توجد هذه الفتاة !!

وليس هذا هو موقف المؤلف من هيفاء وحدها ولكنه موقفه من اغلب شخصيات روايته وان اختلفت نسبة تصرفه في مصائر شخصياته من شخصية الى اخرى .

والمؤلف برغم انه لا يعترف بتأثير البيئة والظروف الا انه حين كان يقدم معظم شخصيات روايته كان يقدمها دفعة واحدة ، وينتهي منها بل انه ينسب الى كل شخصية عقدة او عقدتين وينتهي الامر ، بحيث انه باستمرار القراءة في الرواية لا يكشف لنا عن مزيد من التصرف على الشخصيات ، وهذه الطريقة من اكثر الطرق سذاجة في تصوير الشخصية وهي تذكرنا بما كان يلجأ اليه الروائيون المبتدئون من تحديد كل الصفات المميزة للشخصية قبل ان تبدأ احداث القضية ، فيقول مثلا : كان احمد باشا معتدل القامة صبوح الوجه يميل الى البدانة وكان قد تخرج من قبل في ارقى جامعات اوروبا ويسكن قصره الفخم على النيل ... الخ

ومطاع يلجأ كثيرا الى هذا الاسلوب في تصويره لشخصياته فهو يقدم لنا شخصية مأمون اخي هيفاء على هذه الصورة صفحة ١٩١ « ولكن هذا لايعني مطلقا ان مأمون كان لا يشكو من عقدة اخرى في تكوين شخصيته . غير تلك التي امام الجمال والبراءة . كأن اهله من صغره يعرفون فيه الخجل الدائم والانزواء الى درجة الصمت والاستكانة الى حد المرض . ولم يكن له ثمة ملجأ الا اخته وغرفتهما

المجموعة السيكولوجية

تعالج مشاكل الحياة النفسية على ضوء العلم

	صدر منها	ق. ل
١ ـ تغلب على الخجل ترجمة : عبد اللطيف شراره		١٠٠
٢ ـ سيطر على نفسك « « « «		١٠٠
٣ ـ تغلب على التشاؤم « « « «		١٠٠
٤ ـ سلطان الارادة « « « «		١٠٠
٥ ـ مفتاح الحظ « « « «		١٠٠
٦ ـ سحر الشخصية « « « «		١٠٠
٧ ـ كيف تكسب المال « لويس الحاج		١٠٠
٨ ـ تغلب على القلق « « « «		١٠٠
٩ ـ الايحاء الذاتي « بهيج شعبان		١٠٠
١٠ ـ تغلب على الخوف « لويس الحاج		١٠٠
١١ ـ التنويم المغناطيسي « بهيج شعبان		٢٥٠
١٢ ـ سعادتك بيدك « « « «		١٥٠
١٣ ـ طريق النجاح « « « «		١٥٠

الناشر : دار بيروت

المشتركة بل وسريرها الذي يأوي اليه ملاصقا لاخته ويترك سريره الخاص بعد أن تغلق باب الحجرة ام وهبي . وكانت هيفاء نذوب عطفا ورقة تلقاء هذا الاخ النحيل الصامت الا من عينين تشعان تقديسا وتمجيدا ولم يكن احد باستطاعته ان يعرف حاجات الصبي وان يقبل على تلبيتها له الا هيفاء ومن يديها ومن الطبيعي أن تكون هيفاء قد أسبغت على اخيها الصغير اكثر ما هو بحاجة اليه من حب الام وحنانها ... وكانت اول كارثة صدمت وجدان مأمون الصبي ، هو ذلك القرار الذي اصدرته امه بان ينفصل عن اخته في غرفة ثانية ، والواقع ان اخته قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها بينما مأمون لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره » ..

وبهذا ينتهي المؤلف من شخصية مأمون دفعة واحدة وبصورة مباشرة في هاتين العقدتين ، عقدته امام البراءة والجمال ، وعقدته في الارتباط باخته والاستعاضة بحنانها عن حنان الام المفقود ، وظل يتصرف ضمن نطاق هاتين العقدتين حتى اذا انتحرت اخته في اخر الرواية حكم عليه المؤلف بأن يظل مجنونا حتى يموت !

وشخصية ليلى تتحدد عقدها في ان والدها كان يفاخر بانها اروع فتيات العرب ، ثم تحطم مثال الاب في نفسها بعد ان اكتشفت انه كان يبيع الاسلحة لليهود ، وحين التقت بهاني اللاجيء الفلسطيني ارادت ان تعوض كرمز لشعب فلسطين عن خيانة ابيها ولكنها وجدته مثالا اخر لابيها ، لانه لا يبالي بمأساته ومأساة وطنه وتتركز اهدافه في ان يعيش اللحظة الحاضرة وحدها وهكذا بدأ واستمر ضياعها الى الابد !!

وهاني الشخصية الوحيدة التي تمثل وجه فلسطين في الرواية منحه المؤلف عقدة غريبة وهي انه يعبد مأساة اليهودي الذي شرده من دياره !!

وعادل اخو ليلى تنبع قسوته وعناده من انه يريد الانتقام من ابيه الخائن ، وهكذا انتهى المؤلف من تصويره لاكثر شخصيات الرواية بهذه الصورة المباشرة التقريرية بانه يلصق بكل شخصية عقدة او عقدتين . وينتهي الامر ...

والواقع ان المؤلف كان يرغب في تركيز كل الاضواء على شخصية نبيل ، ويبدو هذا التركيز بوضوح في ان شخصية نبيل تبدو في الرواية كعملاق رهيب تتضاءل امامه جميع الشخصيات الاخرى التي تبدو كأقزام صغار ولذلك فما تكاد اي شخصية في الرواية تلتقي بشخصية اخرى الا ويدور الحديث عن نبيل ، واغلب رسائلهم ومذكراتهم تدور على نفس المحور ، بل ان خواطرهم الداخلية نفسها تتربع في داخلها صورة نبيل الذي سيطر على وجود الشخصيات الخارجي كما سيطر ايضا على وجودها الداخلي ، وقد استثنى حسان نفسه الا انه يشبه نبيل ، او لانه صورة اخرى منه وان كان نبيل يتميز عنه لانه بلغة المؤلف اعظم اشكالا منه ، وبلغة الناس العاديين اكثر قلقا منه !!

ويبدو ان المؤلف قد قسم شخصياته الى قسمين اقسم لم يدرك بعد ان للانسان وجوده الداخلي الصميمي الذي لا تؤثر فيه ظروف اجتماعية او طبقية ، وهؤلاء عاشوا حياتهم خاضعين للعقد ، وانتهى منهم المؤلف دفعة واحدة ، اما الشخصيات التي اكتشفت هذه الحقيقة الجوهرية فهم هيفاء التي انتحرت بعد اكتشافها لهذه الحقيقة الرائعة بقليل ، وحسان وهو صورة اخرى من نبيل ، ثم نبيل وهو بطل الرواية الذي ركز عليه المؤلف كل الاضواء واحتار الناس جميعا في الوهيته وشيطانيته ، واحترنا نحن ايضا في مصير الجيل العربي الذي يرمز اليه هذا البطل وفي مصير الامة العربية لو تحول شبابها جميعا ليصبحوا صورة منه !! ومع ذلك فان لجوء المؤلف الى النزعة التقريرية في تصوير شخصية نبيل واكثاره من اطلاق الاحكام عليها وفرضه لمنطقه الذهني عليه اصاب هذه الشخصية ايضا بالغموض .

وبالطبع لم يلجأ المؤلف الى الصاق عقدة او عقدتين بشخصية نبيل كما فعل بغيره من الشخصيات ، بل انه اغفل اغفالا تاما كل ما يتعلق بنشأة نبيل وتأثير هذه النشأة عليه واكتفى بان اشار مرة الى انه شاب فقير ومرة اخرى الى انه ولد لاب عصابي وام متشائمة ، ولا يبدو ان هذه النشأة اثرت على شخصية نبيل ادنى تأثير فهو يتصرف في حياته كالموسرين ولا يبدو ان لطبيعة والديه اي تأثير على شخصيته .

والباب الضيق الذي اراد المؤلف ان يدخل منه الى شخصية نبيل هو انه اراد ان يحتفظ له كما سبق ان قدمنا باقصى مظاهر حريته الفردية بالاضافة الى اروع مظهر من مظاهر البطولة ، ولو اقتصر المؤلف في تصويره على جانب واحد من جوانبه بان قدمه الينا شخصية متشككة سديمية ضائعة كما وصفها اكثر من مرة لكانت الشخصية اكثر منطقية ومعقولية ، ولكنه اصر على ان يحتفظ له بالصورتين فاتت صورته لذلك حافلة بالكثير من مظاهر التناقض .

فنبيل ظل على طول الرواية كما تصفه ليلى بلا ركيزة ... في الفراغ ... بدون عقيدة ، بدون صليب يركزه في الفضاء ، وكما يصف هو نفسه بانه لا يطمع في شيء ولا يحترم احدا ، ولا يعلم حقيقة ولا يعتقد بعقيدة ولا يريد شيئا .. مجرد انسان يتجول لا يريد مستقبلا ، لا ينصب قيمة فوق راسه .. واعظم من يلتهمه الفراغ .. « لا يثق بواقعة من وقائعه ولم يمتلك بعد احقر حادثة في حياته » .. « بدأ من العالم الممزق ولم يستطع ان يغيره » وتنتهي ليلى في اخر حكم اصدرته عليه الى انه « ما كان غير تمثال غرور صنعته كبرياء شاب لم يصنع بعد شيئا وان اتخذ اخلاق من صنع كل شيء » هذا الشاب الذي يحتفظ بقلقه وتمزقه والذي ظل لا يؤمن بعقيدة ولا بمبدأ او بشعار ، ولا يعترف بأي قيمة كبيرة والذي ذهب الى الجزائريين لا لانه مقتنع بقضيتهم ولكن لانه يريد مواجهة الرعب والذي اكتشف بان الجزائريين ممثلون مثل غيرهم !! والذي يحارب الانسانية كلها ،

مسابقات «الآداب»

يسر مجلة « الاداب » ان تعلن عن اقامة ثلاث مسابقات سنوية لاختيار :

١) افضل رواية عربية
٢) افضل ديوان شعر
٣) افضل دراسة ادبية

شروط المسابقة

١) يحق لجميع ادباء العربية ان يشتركوا في هذه المسابقة .
٢) يقدم الكتاب مخطوطه الى ادارة المجلة باسم الكاتب الحقيقي .
٣) يشترط الا يكون الكتاب قد نشر قبل الان . ولا مانع من ان يكون قد نشر في الصحف والمجلات .
٤) لا تحديد لموضوع الرواية او الدراسة او الديوان.
٥) تقبل المخطوطات حتى اخر ايلول (سبتمبر) ١٩٦٠ وتتألف ثلاث لجان تحكيمية يعلن عنها فيما بعد على ان تصدر احكامها وتعلن نتائج المسابقات في عدد كانون الثاني – يناير – ١٩٦١
٦) يمنح كل من الرواية والديوان والدراسة الفائزة جائزة قدرها الف ليرة لبنانية او ما يعادلها .
٧) تعود حقوق نشر الكتاب الفائز الى « دار الاداب » ولا يتقاضى المؤلف حقوقا اضافية على الطبعة الاولى التي لا تزيد على ثلاثة الاف نسخة .

ويصف اصدقاءه « بانهم اعداؤه وانهم مزيفون وانه شيطان ضد الههم » هذا الانسان نفسه « هو الذي سيغير وجه العالم وان كان الاخرون يحلمون بتغييره » وبرغم انه يحتقر الانسانية كلها فهو يشترك في منظمة سياسية ويخرج مرددا شعاراتها ، وشهرته بالكفاح والنضال تسود الاوساط كلها وتنتشر خارج المحيط العربي الى غيره من الافاق ، وتتساءل ما هو دور هذا البطل الذي سيغير به وجه العالم ، وما هو دوره في الكفاح العربي فنجد دور نبيل في الرواية باهتا او انه في الواقع لا دور له !!

ومع ذلك فان هذا الانسان الممزق كان معبود الفتيات جميعا : احبته هيفاء الارستقراطية الغنية ، وليلى المرأة المجربة التي اضطرت في اوقات بعده عنها الى عقد علاقة مع صديقه حسان ، لانها ترى صورته من خلاله ، ويحرج جوليا راهبة الدير التي دخلت الدير بسببه بعد مناقشة لم تستغرق دقائق ! ويعود الى علاقته معها حيث تتبعه الى كل بقعة يذهب اليها ، وتموت هيفاء بعد ان كشف لها عن حريتها الحقيقية ، وتتمنى ليلى لنفسها نفس المصير !! وكم كسر قلوب العذارى ! وفي الوقت الذي يرفض فيه فكرة الزواج لانه يعوق كفاحه، لا نراه على طول الرواية الا مغازلا للفتيات او متذوقا لافخر انواع الخمور ، وعلى الاخص العرق وهو مشروبه الذي يفضله ، وهو لا يتحدث الى الفتيات الا عن قلقه وغروره وكبريائه بصورة قد تنفر منها اكثر الفتيات وعيا وصبرا بعد ساعات او ايام !!

وهو لا يعترف بالكلمات الكبيرة ومع ذلك يطلقها على الناس والاشياء في الوقت الذي يريده ، فهو يتقيأ على كل شيء في الوجود حتى على نفسه ، ومع ذلك فهو الوحيد القادر على اكتشاف كل مظاهر الخداع والزيف في الاخرين . وهكذا تبدو لامنطقية هذه الشخصية كلما حاول الانسان ، متابعتها بحيث يبدو في النهاية وكانه بطل مجوف من الورق !!

قريبا جدا تصدر

الطبعة الثانية ـ مزيدة ومنقحة ـ من كتاب

محنة الادب في العراق

(الكتاب الذي احدث ضجة كبرى في اوساط القاهرة الادبية ونفدت طبعته الاولى في شهر واحد)

بقلم

محيي الدين اسماعيل وهلال ناجي

فترقبوه

واذا كان المؤلف قد فرض افكاره ومنطقه على سلوك الشخصية فانه فرض نفسه ايضا على الحوار بحيث يبدو الحوار اكثر المظاهر اثارة في الرواية ، فهو لا يفيدنا في الكشف عن مستوى الشخصيات ولا عن طبقتها وانما يفرض المؤلف على الشخصيات ان تتكلم في الوقت الذي يريد وفي الموضوعات التي يريدها وبمستوى المؤلف نفسه الفكري والشعوري . ولا فرق في ذلك بين ان تتحدث الشخصية الى نفسها او ان تتحدث الى الاخرين او تخاطبهم على شكل رسالة ، فالمؤلف هو الصوت الذي يتكرر في ذلك ، ولعل من اكثر الامور التي لجأ اليها المؤلف طرافة في ما يختص بالحوار ، انه كان يخشى ان تختلط الشخصيات المتحاورة على القارىء للتشابه الكبير في لهجتها فكان الحوار احيانا على صورة الحوار في المسرحية بان يضع اسم كل شخصية قبل الاقوال التي تنطق بها حتى نستطيع ان نفرق بين ما تقوله كل شخصية من الشخصيات ونفصل اقوالها عن اقوال الشخصيات الاخرى . ولعل في ذلك اصدق مثال على عدم قدرة المؤلف على التفريق بين شخصية واخرى اعتمادا على مستواها النفسي والعقلي ، ولذلك لجأ الى التهديد المباشر ، وقد حدث ذلك في الرواية في اكثر من مشهد من مشاهدها . كما يلجأ المؤلف في احيان اخرى الى تنبيهنا الى ان بعض الشخصيات اكثر سذاجة في حديثها من الشخصيات الاخرى كما حدث في صفحة ١٧٧ حيث يشير المؤلف الى ان هيفاء قالت هذه الجمل في سذاجة متناهية « ولكني لم انضم الى جيلكم بعد ، ولم اقم بعمل ما في حياتي له طابع عام . كنت مهمومة بهمومي الذاتية . كنت اقاوم البيت التقليدي الذي ولدت فيه ، والاحاسيس المزيفة التي تعصف بي .. كنت اريد ان اكون دائما شيئا خارجا عنهم : اهلي واقربائي واصدقائي التقليديين ... كنت اخشى ان اكون منهم .. ولم يخطر ببالي ان اسأل ماذا اكون ان لم اكن منهم اذن .. ان الجواب اتى متأخرا الليلة فقط .. »

واذا كانت مثل هذه اللهجة بالنسبة لفتاة غنية مدللة تمثل السذاجة التي لا حدلهافي نظر المؤلف فلا احد يدري ما يمكن ان تقوله هذه الفتاة اذا تحدثت بلهجة عادية لا سذاجة فيها او اذا حاولت الحديث بلهجة عميقة !!

بقيت نقطة اخيرة وهي ان المؤلف في رغبته في الخروج بروايته من النزعة التقريرية الجامدة كان يلجأ في كثير من الاحوال الى نحت الصور البيانية الجزئية نحتا يبدو فيه التكلف والاصرار ، وهذا ما يضيف على الرواية طابع الغموض ، وهذه الصور الكثيرة في الرواية من امثلتها وصفه لنبيل بانه « انسان وحش اسود يتآكل ويتنامى داخليا وتطفح على وجهه ارادة العاصفة المزورة » او وصفه له بانه « عملاق متحد الظل في الظهيرة وسط الصحراء مع الوهج فحسب ، مع الجحيم » والمتأمل في كثير من هذه الصور يجد دلالتها في احوال كثيرة من البساطة بحيث يمكن ان تؤدى بابسط الاساليب .

واخيرا وبعد ذلك كله ، فلا ينبغي ان يفوتنا ان نعيد ما سبق ان قدمناه من ان الاستاذ مطاع صفدي قد حاول الدخول من الباب الضيق . انه كان شجاعا في محاولته ، وانه يجهد بشدة للتخلص من جحيم فرديته ليكون رائدا من رواد الطليعة ، وان له طموحه الكبير في ان يكون صاحب فلسفة ، وان هذه الرواية هي روايته الاولى ، ولذلك لم تخل مما لا يمكن ان تخلو منه التجارب الاولى من نقص . وكل غايتنا من هذا النقد ان يكون الاستاذ مطاع صفدي اكثر التصاقا بالواقع وتعاطفا معه وان يتخلى قليلا عن المنطق التجريدي وان يفتح ذاته بصورة اكثر رحابة على البشر من حوله حتى نستطيع جميعا ان نرتفع الى مستوى قضيتنا من اجل خدمة الواقع العربي والانساني .

القاهرة ـ **عبد المحسن طه بدر**